

المقارنة ، ج - منهج يعتمد على البحث المقنن بشروط محددة ، د - منهج يجمع بين كافة الاساليب السابقة في الدراسة . ونلاحظ ان المناهج المذكورة اتفاهي من ضمن مناهج الدراسة الاجتماعية والنفسية عموما . وقد اعتمد شارلس دارون ولوكيه وهلجا اناج وآخرون غيرهم ، على المنهج الاول ، اي الملاحظة المباشرة في دراسة رسوم ابنائهم ، وان تفاوت كل منهم في مدى انصرافه للدراسة المعنية وفي تتبع سلوك ابنه اثناء الرسم ، وكذلك في طبيعة النتائج التي توصل كل منهم اليها . كما نحى كل من كرشنشتينر وجورج روما وسرل برت وستيلا اجنس مكارثي وروز الشولر ولابرتا هاتوك وآخرون غيرهم الى دراسة رسوم الاطفال بأسلوب البحث المقنن ، الذي يتوجه غالبا الى متابعة مجموعات كبيرة من الاطفال . اما الدراسة المقارنة ، فهي ملحوظة في أعمال اولئك الذين يهتمون بتتبع مدى التفاوت بين نتائج الباحثين الذين سبق ان قاموا بتجارب متماثلة ، وهو ما نلاحظه في الكتابات المعاصرة (٢٧) . كذلك يلجأ كل باحث في شؤون رسوم الاطفال الى مقارنة نتائجه بنتائج غيره اذا ما انطلقوا من أساسيات واحدة . فيعمد كل باحث الى اظهار أوجه التعارض او التشابه ، من خلال نماذج أصلية من رسوم الاطفال ، او برسوم توضيحية ، او باحصاءات (٢٨) .

وتعتبر الطريقة التي استخدمت في تجربتنا مع اطفال مخيم البقعة ، مزيجا من عدة أساليب ، اذ ان السبب يعود الى طبيعة التجربة الاستكشافية العامة ، حيث لم تكن تستهدف تتبع موضوع بعينه ، او ملاحظة شريحة من عمر زمني معين ، كما لم تستهدف غرضا اجتماعيا او سايكولوجيا او فنيا او ثقافيا بصورة محددة . وانما كانت تتناول هذه الامور من حيث المحصلة العامة ، لذلك ، فقد كانت التجربة واسعة من حيث شمولها لاعداد كبيرة من الاطفال الاناث والذكور ، ومن فئات سن متعددة ، كما اعتبرت التجربة عموما في كافة مراحلها على عدة اساليب في دراسة هذه الرسوم ، اذ اعتبرت على الملاحظة المباشرة ، من حيث كونها تترك للاطفال تلقائيتهم في التعبير ، وان كنا لم نهمل محاولة تعريف الاطفال للالوان وطبيعتها ، دون املاء وجهة نظر في طريقة التعبير ذاتها . وقد كفل ذلك مميزات هذه الطريقة ، مثل تيسير « الحصول على حقائق صحيحة بالنسبة للتعبير الحر للطفل » .

كما انها تفسر الظروف البيئية التي لعبت دورا بارزا في ابراز هذه التعابير بشكلها المميز . والواقع ان الملاحظة المباشرة ، قد استخدمت مع مجموعات كبيرة من الاطفال ، كنا نتتبع رسوماتهم يوميا . واحيانا نضمن رسوماتهم نفسها ، او في دفتر خاصة ، ملاحظتنا حولها . كذلك ، في فترة الامتداد تتبعنا بنفس الاسلوب بضعة اطفال ، عندما تيسر لنا الحصول على « استديو » خاص للرسم في المخيم . ومن جهة ثانية فقد اعتبرت تجربتنا على بعض مزايا الاسلوب القائم على الطريقة المقننة دون بعضها الاخر ، مثل جمع الرسوم وفحصها على اساس السن او الصف الدراسي ، وتقتين الرسوم التي تنتهي الى فئة سن واحدة الى اناث وذكور . وقد ساعد على التقتين وجود تجانس عام بين مجموعات الاطفال ، من حيث البيئة ، العمر الزمني ، الثقافة ، التجربة . الخ ، بحكم وجودهم في مناخ اجتماعي وبيئي واحدة ( المخيم ) ، لذلك يمكن القول ، ان « العينات » او الشرائح التي اجريت عليها التجربة ، قابلة للتعميم على صعيد اطفال المخيمات التي اقيمت بعد الحرب في الاردن .

واخيرا ، فان التجربة ، قد سمحت ببعض المقارنات سواء من حيث اوجه التشابه والتعارض بين رسوم الاطفال الذكور والاناث ، او من حيث موضوعات وطريقة المعالجة عند فئات متفاوتة في النمو عند الجنسين . والتجربة ما زالت تسمح بمقارنتنا متعددة الواجه ما بين رسوم اطفال المخيمات في الاردن ، وانظارهم في المدن ، او بين اطفال المخيمات في عدة اقطار عربية ( الاردن ، سوريا ، لبنان ) او بين الاطفال الفلسطينيين والاطفال العرب من اقطار شقيقة اخرى . الخ . وعلى ذلك ، فانه يمكن القول ان الملاحظات الشخصية ، التي كانت تتبع التجربة اولا باول ويوميا ، مضافا اليها المعلومات المدونة حول السن ، الجنس ، السنة الدراسية والاسئلة الشخصية الموجهة للاطفال ، وملاحظات الاطفال نفسها ، قد وفرت أساسا للقتين وساعدت في تحديد الظواهر المرتبطة بكل مرحلة زمنية ، وفي وضع هذه الرسوم داخل الاطار الموضوعي الذي يحكم نمو الاطفال .

عند مراجعتي للملاحظات الاولى حول مراحل نمو التعبير عند الاطفال النازحين في مخيم البقعة ا